المحاضرة الثامنة: مراحل الغزو الفرنسي للجزائر سنة 1830

أ- مرحلة الحصار البحري الفرنسي للسواحل الجزائرية 1827-1830.

ب- مرحلة اعداد مشروع الحملة العسكرية على الجزائر.

ت- الاستعداد الفرنسي للحملة العسكرية على الجزائر (مرحلة التحضير للحملة).

ث- الاستعدادات الجزائرية للحملة.

ج- انطلاق الحملة من ميناء طولون إلى سيدي فرج.

ح- سقوط العاصمة وبداية الاحتلال.

خ- التوسع الفرنسي في الجزائر.

د- النتائج الأولية للاحتلال وردود الفعل داخليا وخارجيا.

أ- مرحلة الحصار البحري الفرنسي للسواحل الجزائرية 1827-1830:

وصل خبر حادثة المروحة إلى فرنسا في الوقت الذي تصاعد فيه نشاط المعارضة ضد ملك فرنسا شارل العاشر، فحاولت المعارضة استعمالها ضد الحكومة، لكن هذه الخيرة تحركت لتجعل من الحادثة ورقة رابحة في يدها هي لا في يد المعارضة.

وعليه كان رد فرنسا على حادثة المروحة إرسال قطعة من أسطولها أمام الجزائر بقيادة القبطان كولي (Collet)، وقد وصلت القطعة يوم 12 جوان 1827، وصعد القنصل دوفال سفينة القبطان. جاء كولي يطلب من الباشا (الداي حسين) أن يأتي شخصيا إلى السفينة ويعتذر للقنصل، ولما كان معروفا مسبقا أن الباشا لن يرضى بذلك فقد اشتملت تعليمات كولي على اقتراحات أخرى هي:

- أن يستقبل الباشا القبطان ورئيس أركانه والقنصل بمحضر الديوان والقناصل الأجانب ويعتذر أمامهم إلى دوفال.
- أن يرسل بعثة برئاسة وكيل الحرج (وزير البحرية) إلى قطعة الأسطول الفرنسي ليعتذر باسم الباشا إلى القنصل.
- أن يرفع العلم الفرنسي على جميع القلاع الجزائرية، بما في ذلك القصبة وتطلق مائة طلقة مدفع تحية له.

وكانت تعليمات كولي تقتضي أنه في حالة قبول الباشا أحد الحلول الثلاثة يتقدم إليه بعد ذلك بعدة مطالب فرنسية تتضمن:

- دفع التعويضات.
- معاقبة الجزائريين المسؤولين عن الأضرار بالمنشآت الفرنسية.
- تسليح هذه المنشآت في المستقبل.

- اعلان الجزائر أنه لا حق لها في دين بكري.
- في حالة عدم استجابة الداي لواحد من هذه الاقتراحات المذكورة يعلن الحصار رسميا على الجزائر.

ومن جهة الجزائر توجه الحاج أحمد باي برسالة إلى المسؤولين في عنابة يوم 14 جوان 1827 وضح فيها أن السلطة لم تكن تريد تصعيدا مع فرنسا، كما دعا هؤلاء المسؤولين إلى اليقظة والمراقبة الصارمة لجهة البحر " ليلا ونهارا " . على صعيد آخر أوصى في رسالته موظفي بايلك الشرق بحسن معاملة الفرنسيين وعدم التعدي عليهم أو ظلمهم.

وفي 15 جوان 1827 أرسل كولي عن طريق قنصل سردينيا في الجزائر الكونت D'Attili الذي أصبح يرعى المصالح الفرنسية بعد انسحاب دوفال انذارا للداي حسين، وأعطاه أجل قبول هذه الاقتراحات أربعة وعشرين ساعة فقط (24 ساعة)، وكان رد فعل الداي أنه لا يفهم أنه بدلا من أن تعين فرنسا قنصلا جديدا وتكتب إليه مباشرة لجأت إلى ارسال إنذار مضحك مع ضابط بحرية.

وعندما انقضى أجل الانذار بدون رد أعلنت فرنسا الحرب على الجزائر في يوم 16 جوان 1827 في غياب الأسطول الجزائري الذي كان في طريقه إلى اليونان لمساعدة الدولة العثمانية في معركتها البحرية المشهورة نافارين، وقد ظل إعلان الحرب من فرنسا على الجزائر في شكل حصار بحري لميناء الجزائر. بغرض تحقيق عدة أهداف نوجزها فيما يلي:

1- قطع التموين عن الجزائر، وبالتالي إضعاف قوتها الاقتصادية المعتمدة على النشاط البحري.
2- إغلاق الباب أمام أي تدخل محتمل من طرف الدولة العثمانية أو الدول الأوروبية المنافسة لها من جهة.
3- إعطاء الوقت الكامل لمساعيها الدبلوماسية لإقناع الدول الأوروبية بجدوى احتلال الجزائر مدعية أن ذلك في صالح أوروبا والمسيحية عموما.

وكرد فعل على هذا الحصار أمر داي الجزائر باي قسنطينة بالاستيلاء على المنشآت الفرنسية الواقعة في إقليمه. وفي بعض الروايات التاريخية تقول أن الداي حسين أمر بتخريبها.

الجدير بالذكر أن البحارة الجزائريين عملوا على فك الحصار، فقاموا بمحاولات عديدة منها محاولة 4 أكتوبر 1827، أين تمكنت 11 قطعة بحرية تحمل متطوعين من الخروج من ميناء الجزائر، فخرجت خمس قطع فرنسية من خط الدفاع لتواجهها، وجرت معركة واشتباكات عنيفة بين الطرفين دامت ساعتين، لتنتهي بانسحاب الجزائريين وعودة القطع الفرنسية إلى خط دفاعها.

ومن جهة أخرى تواصلت القرصنة البحرية بين فرنسا والجزائر، ففي شهر أوت من عام 1827 استولى الرياس على سفينتين فرنسيتين في مياه وهران وأسروا بحارتهما، لكن الفرنسيين تمكنوا يوم 25 أكتوبر من نفس السنة من إغراق أربع

سفن غرب مدينة الجزائر، وفي 22 ماي من سنة 1828 أغار الفرنسيون على ميناء وهران وتمكنوا من استرجاع إحدى سفينتيهم اللتين وقعتا بيد الجزائريين.

وبعد هذه الاصطدامات رابطت حوالي 12 قطعة بحرية قبالة الموانئ الجزائرية وشكلت دورية بحرية من 6 قطع أخرى، وكلفت قطع أخرى بمراقبة الملاحة وتوفير الأمن لها، ووضعت قطع أخرى في حالة استنفار دائم. وهكذا أصبح عدد القطع البحرية المكلفة بالحصار حوالي خمسين قطعة (50 قطعة بحرية).

ب- اعداد مشروع الحملة العسكرية على الجزائر:

بقي الحصار مستمرا على الجزائر وبالمقابل فتحت فرنسا باب المفاوضات مع الجزائر تهدف منها إلى إلغاء الحصار بطريقة مشرفة، فبعثت عدة وفود لغرض استئناف المفاوضات، منها البعثة التي ذهبت الى الجزائر بقيادة الضابط بيزار (Bézard) في 29 أفريل 1828، ولكن البعثة فشلت في التفاوض مع الداي حسين لإصراره على عدم دفع تعويضات إلى فرنسا . وتلا ذلك بعثة أخرى بقيادة نفس الضابط التي فشلت أيضا لأن الباشا رفض أحد الشروط الفرنسية الأساسية وهو إرسال وزير من حكومته إلى باريس للاعتذار، واشترط أن يفعل ذلك فقط بعد توقيع معاهدة صلح مع فرنسا.

وفي جويلية 1829 وصل مبعوث خاص من شارل العاشر ملك فرنسا، للمفاوضات مرة أخرى مع الداي حسين، وكانت شروطه التي رفضها الداي حسين قائلا: " لدي بارود ومدافع.":

- رد الاعتبار للشرف الفرنسي المهان.
- إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين.
- إنهاء فرض الاتاوة.
- إنهاء القرصنة.

وخلال مدة الحصار البحري على مدينة الجزائر التي دامت ثلاث سنوات ضعفت القوات الفرنسية ونفذت ذخيرتها وانقرض معظم جيش الضابط كولي، وتكسرت أكثر المراكب وكانت خاتمة أمر هذا الضابط بقتله، وفي هذا الصدد ذكر بعض المؤرخين أن النفقة على هذا الحصار كانت أكثر من عشرين مليون فرنك، وبالمقابل الجزائر لم يلحقها ضرر كبير.

إن تكاليف الحصار الباهظة سواء من حيث تكاليف الأسطول أو من حيث الخسائر التي لحقت التجارة الفرنسية التي كانت مهددة بسبب عدم توقف القرصنة الجزائرية بصفة نهائية إلى درجة أن التجارة الفرنسية عادت إلى أسلوب القوافل، أو من حيث الخسائر البشرية من جهة وأمام فشل المفاوضات مع الجزائر ، وإصرار فرنسا على مطالبها بإرغام الداي على الاعتذار ودفع تعويضات وإصراره بدوره على الرفض، جعلت فرنسا ترى عدم نفع حصارها البحري على الجزائر، وتخطط لتنتقل إلى الخطوة الثانية المتمثلة في تحويل الحصار إلى حملة.

يذكر بعض المؤرخين أنه من اليوم الذي أمر ملك فرنسا شارل العاشر من الضابط كولي ضرب حصار بحري على مدينة الجزائر شرعت فرنسا في اعداد مشروع الحملة، وأعدت عدة مشاريع من طرف جنرالات ونواب. حيث ارتفعت بعض الأصوات تنادي بالعودة إلى مشروع نابليون المتعلق باحتلال مدينة الجزائر، ومن بين الذين كانوا متحمسين للمشروع نجد المركيز كليمون طونير وزير الحربية الذي قدم تقريرا إلى الملك يوم 14 أكتوبر 1827، يتضمن مشروعا مفصلا لعملية غزو مدينة الجزائر جاء في مقدمته " الحرب قائمة مع مدينة الجزائر، كيف يمكن إنهاؤها بشكل مفيد و مجيد لفرنسا ؟ هذه هي المسألة التي يجب فحصها."

كما جاء في تقريره أنه لا فائدة من الحصار، موضحا في ذات الوقت الأسباب التي تحتم الحملة وتستجيب ل " حق " الملك في القيام بها، كما استعرض في تقريره الوسائل التي لابد منها لإنجاز العملية. يذكر أن المشروع الذي تقدم به وزير الحربية كليمون طونير إلى ملك فرنسا شبيه بالمشروع الذي اقترحه الجاسوس بوتان في عهد نابليون، ولكن في نهاية الأمر اتبعوا خطة بوتان –السابقة الذكر

ومن جهته أعد رئيس مجلس وزراء فرنسا " بولينياك " خطة تتمثل فيما ينبغي أن تكون عليه الجزائر بعد الانتصار عليها، واقترح على مجلس الوزراء حرية الاختيار بين البدائل التالية:

- إبقاء الداي في حكم الجزائر على أن تشرف فرنسا عليه من الناحية العسكرية فيحدد له عدد الجيش والأسطول الذي يستطيع الداي الاحتفاظ به.
- إعادة الجزائر إلى الدولة العثمانية لإنشاء حكومة منظمة فيها تضمن احترام الجزائريين للملاحة في البحر الأبيض المتوسط.
- أن تتقاسم فرنسا الجزائر مع الدول الأوروبية وخاصة انجلترا.
- أن تحتل فرنسا الجزائر بصورة دائمة وأن تستغلها اقتصاديا.

وبالطبع فإن الاقتراح الرابع هو الذي وقع عليه الاختيار بعد الانتصار الفرنسي على الداي وزوال حكومته.

وبناء على ما تقدم وبعد ثلاث سنوات من الحصار وفشله في إرغام الداي على تقديم الاعتذار، وبعد ثلاث سنوات من تصاعد قوة المعارضة الليبرالية لنظام شارل العاشر، قرر مجلس الوزراء الفرنسي يوم 31 جانفي 1830 تنظيم حملة على مدينة الجزائر، حدد الوزير الأول بولونياك أهدافها بقوله: " هناك مصلحتان متمايزتان، ولكنهما متصلتان اتصالا وثيقا، قد أدتا الى الاستعدادات التي جرت في موانئنا، احداهما تخص فرنسا بالدرجة الأولى: وهي الثأر لشرف رايتنا، والحصول على تصحيح الأخطاء التي كانت السبب المباشر في النزاع، وللمحافظة على ممتلكاتنا من الاعتداءات وأعمال العنف التي تعرضت لها في كثير من الأحيان، ثم الحصول على تعويض مالي، بالقدر الذي تسمح به دولة الجزائر، على

مصاريف الحرب التي لم نتسبب فيها . أما المصلحة الثانية التي تهم البلاد المسيحية عامة، فهي إلغاء الرق والقرصنة ودفع الجزية التي مازالت أوروبا تدفعها إلى ولاية الجزائر."

ت- **الاستعداد الفرنسي للحملة العسكرية على الجزائر (مرحلة التحضير للحملة):**

بعد أن تقررت الحملة بصفة فعلية، عملت فرنسا في اتجاهين:

1- تحضير الحملة بشريا: تم تعيين كل من "دوبري" قائدا للقوات البحرية، و" البارون ديني " معتمدا عسكريا، وكلف الجنرال " فالازي " بالهندسة، كان على هؤلاء أن يشرفوا على عمليات التحضير.

وعلى صعيد آخر عين الجنرالات قبل انطلاق الحملة بشهرين ليتمكنوا من التعرف على جنودهم، حيث عين " بيرتزين " على رأس الفرقة الأولى التي عسكرت بين طولون ودراغينيون، وعين لوفيردو على رأس الفرقة الثانية التي عسكرت بين طولون وإيكس، ووضع الدوق كارس على رأس الفرقة الثالثة التي عسكرت في إيكس. علما أن مجموع جنود الفرق الثلاث كان أكثر من 25 ألف رجل، أما الخيالة فحوالي 500 فارس، عسكروا في تارسكون، بينما عسكرت الهندسة التي كانت تتكون من 8500 رجل في ضواحي أرل، واحتلت المدفعية التي بلغ عدد رجالها 2500 أبواب طولون، وأخيرا عين وزير الحربية نفسه الكونت " دوبورمون " على رأس الحملة، وكان تحت إمرته 17 ضابطا برتبة جنرال.

ومن جهة أخرى ضمت الحملة بالإضافة إلى العسكريين هيئة من مترجمين بلغ عدد أفرادها حوالي 40 مترجما، منهم " جورج كاروي " و" ليون أياس "، كما رافق الحملة رسامون.

2- تحضير الحملة ماديا: تطلب تحضير الحملة ماديا حوالي ثلاثة أشهر من العمل ليلا نهارا، عين أصبح العتاد جاهزا في الأيام الأولى من شهر ماي، تجمعت 100 بارجة تملكها الدولة و500 سفينة تجارية في مرسيليا وطولون، كما جمعت كمية ضخمة من الملابس ومن الخيام والأغطية وأغذية شهرين والأعلاف والعربات وأدوات شق الطرق والأخشاب والحواجز وكمية ضخمة من الخراطيش (5 ملايين خرطوشة) وأكثر من 280 ألف كلغ من البارود وعتاد التلغراف، وحملة الحملة معها كذلك مطبعة ...الخ. علما أن هذا العتاد الضخم كان كله جاهزا على متن السفن قبل 15 ماي.

3- تهيئة الرأي العام الداخلي والدولي:

تمكنت فرنسا من أن تحصل على موافقة اسبانيا للاستعمال موانئها وإقامة مستشفى في ماهون بالبليار يستعمل لعلاج الجرحى والمرضى، كما نجحت في ضمان حياد حسين باي تونس في حربها مع الجزائر منذ 1828، بل سمح هذا الباي بتسهيل تموين الحملة ان اقتضت الضرورة لذلك.

ومن جهته التزم يوسف باشا طرابلس بالعمل على شل قوات محمد علي إن جاءت من مصر، أما المغرب الأقصى الذي عبر عن امتناعه الصريح بتقديم العون للجزائر، فقد سمح سلطانه مولاي عبد الرحمن للفرنسيين بالتزود من موانئه في حالة الضرورة كذلك.

ولم تلق فرنسا موقفا رافضا بصراحة سوى من انجلترا التي كانت تنظر إلى الحملة بعين الريبة والشك، إلى درجة أنها طالبت بتوضيحات خاصة بالحملة، غير أن وزير البحرية الفرنسية لم يرفض تقديم التوضيحات فحسب بل رد على السفير الانجليزي متحديا إياه " امنعونا إن أردتم أو بالأحرى إن استطعتم."

ث- استعدادات الجزائر لمواجهة الحملة:

بينما كانت فرنسا تستعد للقيام بحملة عسكرية ضد الجزائر كانت هذه تستعد أيضا لمواجهة الحملة، حيث اقدم الداي حسين باشا على تخصيص مرتبات لعدد من الجواسيس في كل من ايطاليا ومرسيليا وطولون وباريس، فنقلوا إليه خبر استعداد فرنسا لغزو المدينة وأنها أعدت أسطولا رهيبا لإرساله، وقد أكد هذا الخبر سفينتان جزائريان استطاعتا أن تتسللا ليلا ين السفن الفرنسية المحاصرة، كانت أحداهما تحمل العلم الانجليزي والأخرى العلم الايطالي، ومن ضمن الأخبار التي نقلت أيضا أن الأسطول سيبلغ الشواطئ الجزائرية في شهر ماي 1830، وأنه سيرسو على الأرجح غرب المدينة في شبه جزيرة سيدي فرج.

ولهذا كان حسين باشا على علم بتفاصيل الحملة قبل وقوعها، لكن رغم الأخبار التي جاءته من الجواسيس تنذره بوقوع الحملة الفرنسية على الجزائر، إلا أنه اعتقد أن ذلك لن يتعدى الضرب من البحر(غارة بحرية) شأنها شأن الحملات الأوربية السابقة ستفشل لا محالة كما فشلت سابقاتها.

ومن جهة أخرى كان الداي حسين لا يزال على الاعتقاد بأن الفرنسيين لن يتخلوا عن فكرة التفاوض رغم استعداداتهم لحملة، وكان يساعده على اعتقاده كثرة الرسل والبعثات التي جاءت طالبة التفاوض منذ إعلان الحصار.

إن ثقة الداي حسين في عدم هجوم فرنسا برا على مدينة الجزائر هي التي منعته من تحصين سيدي فرج واستعمال كل إمكانياته، وكما يقول حمدان خوجة في كتابه " المرآة " " في سيدي فرج لم تحضر المدفعية، ولم تحفر الخنادق ولم يكن هناك سوى 12 مدفعا كان الآغا السابق (يحي آغا) قد نصبها في بداية اعلان الحرب ." مضيفا بقوله " وفي اليوم الذي نزل فيه الماريشال دوبورمون مع جيشه لم يكن تحت تصرف الآغا سوى 300 فارس، ولم يكن مع باي قسنطينة إلا عدد قليل جدا من الأجناد، لأنه لم يكن مستعدا لخوض المعركة، وكان باي التيطري في المدية، ولم يصل منها إلا بعد بضعة أيام " الإنزال الفرنسي .

ومن جهة أخرى لم يكن ابراهيم آغا قادرا على مواجهة الفرنسيين، حيث لم يكن قائدا ممتازا في يوم من الأيام، ولم بعرف الشيء الكثير من التكتيك العسكري. إن "الآغا ابراهيم لم يعد أي شيء ولم يتخذ أي نوع من التدابير ولم يعطي أي أمر، وهكذا إذن كان هذا الآغا يريد محاربة الفرنسيين بدون جيش منظم ولا ذخيرة حربية ولا مؤن، ولا شعير للخيل، وبدون أن تكون له المقدرة الضرورية للقيام بالحرب."

ولم يكتف ابراهيم آغا بعدم القيام بأية استعدادات لصد العدو، بل إنه عارض اقتراحات زملائه أمثال الحاج أحمد باي قسنطينة الذي رأى أنه ليس من السياسة في شيء أن تجمع القوات الجزائرية في نقطة واحدة، وإن من الواجب توزيعها بحيث يحمل جزء منها إلى غربي سيدي فرج، ومعنى ذلك أن الفرنسيين إذا لاحقوا الجيش، فإنهم سيبتعدون عن هدفهم الذي هو مدينة الجزائر، وسيكون ذلك لصالح الجزائر، إذ يستطيع الجيش البدء بالهجوم. واذا قصد الفرنسيون مدينة الجزائر، فإن الجيش الجزائري سيهاجمهم من الخلف والانتصار عليهم، كما اقترح باي قسنطينة أن يتولى كل قائد الاعتناء بجزء من الجيش .ويكون مقر القيادة مدينة الدار البيضاء.

وكان رد ابراهيم آغا من هذه الاقتراحات بقوله " إنكم لا تعرفون التكتيك الأوروبي، إنه يتعارض كل المعارضة مع تكتيك العرب . " ورأى باي قسنطينة في هذه الإجابة البليدة إهانة له، لذلك التزم الصمت ولم يسمح لنفسه بإبداء أية ملاحظة أخرى.

و"لولا كان الآغا يحي على رأس الجيش الجزائري بدل ابراهيم آغا لكانت الأمور أحسن حالا، لأن تجاربه في البحر والبر وشجاعته في كل المناسبات تكون ضمانا للجندي الذي يعمل تحت أوامره."

أما من جهة داي الجزائر فقد أرسل المراسيل إلى داخل البلاد يدعون إلى الجهاد ضد الفرنسيين، فاستجاب لندائه الرسميون والأهالي على السواء، فوعده الحاج أحمد باي قسنطينة ب 30 ألف محارب، ووعد حسن باي وهران ب 6 آلاف محارب، ووعد مصطفى بومرزاق باي التيطري ب 20 ألف محارب، وجمع شيوخ جرجرة بين 16 و18 ألف محارب، وجمع أهالي ميزاب حولي 4 آلاف محا رب. وأرسل الداي حسين أيضا إلى باي وهران يأمره بتحصين الميناء، كما أرسل إلى باي قسنطينة يأمره بتحصين ميناء عنابة ويستقدمه إلى العاصمة طبقا للتقاليد التي تقتضي القدوم كل ثلاث سنوات، كما أمر بإجراء إحصاء لعمال مدينة الجزائر وإرسالهم إلى القلا ع للدفاع عنها.

ج- انطلاق الحملة من ميناء طولون إلى سيدي فرج:

غادرت الحملة الفرنسية بقيادة الجنرال وزير الحرب " دي بورمون " ميناء طولون الحربي يوم 25 ماي 1830، متجهة إلى الجزائر، وقد وصلت الحملة إلى ميناء العاصمة الجزائرية في 14 جوان 1830 ونزلت بشبه جزيرة سيدي فرج غربي العاصمة

على بعد 28 كلم، وفق خطة بوتان التي وضعها في عهد نابليون، والتي أكد فيها أن تلك المنطقة هي نقطة الضعف في الدفاع الجزائري.

كما قضت خطته أن أنجع طريقة للانتصار هي النزول بهذه المنطقة، ثم مهاجمة مدينة الجزائر برا من ناحية الجنوب، لعلم بوتان بإهمال الأتراك التحصينات البرية، واكتفائهم بالدفاعات البحرية القوية.

وفي غياب خطة عسكرية دفاعية واتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع الحملة من النزول إلى البر، نجح الفرنسيون دون مقاومة تذكر واستولوا على سيدي فرج، وانتصروا على قوات الداي في اسطاوالي أين كان معسكر القوات الجزائرية في 19 جوان 1830.

وواصلت قوات دي بورمون في الزحف على الجزائر العاصمة تبعا للخطة التي رسمها بوتان، وفي 4 جويلية سقط " برج مولاي الحسن " في يد الفرنسيين بعد أربعة أيام من المعارك. وهو الحصن الذي يشرف على العاصمة والوحيد الذي كان يحمي المدينة من الجهة الجنوبية والجهات البرية بصورة عامة . وعندما يئس الأتراك من ايقاف الهجوم الفرنسي على الحصن أضرموا النار في خزينة الذخيرة وفجروا الحصن، لئلا يستخدمه الفرنسيون لقصف العاصمة.

وأمام هذا الوضع الحرج جمع الداي حسين أعيان المدينة ورجال القانون والدين وشرح لهم الوضع الذي تمر به البلاد وطلب منهم النصيحة فيما يفعل لمواجهة الموقف. وقد وضع أمامهم السؤال التالي: هل من الصواب مواصلة المقاومة ضد الفرنسيين ؟ أو يجب تسليم المدينة إليهم والتوقيع معهم على معاهدة الاستسلام ؟ وبعد تقليب الموضوع من عدة وجه أجابوه بجواب غامض، وهو أنهم على استعداد لمواصلة الحرب، ولكن إذا كان رأيه غير ذلك فهم يطيعون أوامره.

وفي ليلة 2 جويلية عام 1830 م أي قبل ثلاثة أيام من دخول الجيش الفرنسي للمدينة، اجتمع عدد من أعيان مدينة الجزائر وقرروا أن ضياع المدينة أصبح أمرا محتما، وأنه إذ ما دخلها الفرنسيون عنوة فإنهم سيبيحونها وينهبون ثرواتها ويعتدون على النساء ويقتلون الأطفال، ورأوا، تفاديا لذلك قبول اقتراح الباشا (الداي حسين) الثاني الذي ينص على الاستسلام بعد توقيع معاهدة، مقتنعين أن فرنسا ستترك الجزائريين يتمتعون بدينهم وتقاليدهم وستترك لهم أموالهم ومساجدهم وزواياهم، وبناءء على ذلك:

قرروا عدم مقاومة الفرنسيين عند دخول المدينة وأرسلوا وفدا عنهم إلى القصبة لمقابلة الباشا واطلاعه على ما اتفقوا عليه. وقد أجابهم بأنه سينظر في القضية خلال اليوم التالي. وفي يوم 4 جويلية 1830 أرسل الداي حسين كاتبه مصطفي مصحوبا بالقنصل الانجليزي وأحمد بوضربة وحمدان بن عثمان خوجة كمترجمين إلى مقر القيادة الفرنسية للتفاوض مع "دي بورمون" . وعرض عليه الصلح، حيث كان الداي مستعدا لتحقيق الأمور التالية:

- التنازل عن كل الديون.

- الدفع نقدا كتعويض عن الاعتذار.
- إعطاء جميع الامتيازات للتجارة الفرنسية.
- تعويض جميع نفقات الحملة.

ولكن دي بورمون رفض هذه العروض وأصر على استسلام الداي وتسليم العاصمة، فعرض عليه عن طريق رسوله وثيقة تتضمن الشروط التالية:

- يسلم حصن القصبة، وكل الحصون التابعة للجزائر، وميناء هذه المدينة إلى الجيش الفرنسي صبيحة يوم 5 جويلية 1830 على الساعة العاشرة.
- يتعهد القائد العام للجيش الفرنسي تجاه صاحب السمو، داي الجزائر، بترك الحرية له، وحيازة كل ثرواته الشخصية.
- للداي حسين كامل الحرية في اختيار المكان الذي يرغب السفر إليه رفقة عائلته وأمواله، ويكون تحت حماية القائد العام الفرنسي طوال اقامته في الجزائر، وسيتولى حرس ضمان أمنه الشخصي وأمن أسرته.
- يتمتع الجنود الأتراك التابعين للجيش الجزائري بالحقوق المقررة في الفقرات السابقة (أي نفس الامتيازات ونفس الحماية.)
- ستبقى ممارسة الشعائر الدينية الاسلامية حرة، ولن يلحق أي مساس بحرية السكان من مختلف الطبقات، ولا بدينهم، ولا بأملاكهم، ولا بتجارتهم وصناعتهم، وستكون نساؤهم محل احترام ويتعهد القائد العام الفرنسي بذلك عهد شرف.
- سيتم تبادل هذه المعاهدة قبل الساعة العاشرة، وسيدخل الجيوش الفرنسية عقب ذلك حالا إلى القصبة، ثم تدخل بالتتابع كل الحصون المدينة البحرية.

واضطر الداي إلى قبول الشروط الفرنسية السالفة الذكر، ووقع على وثيقة الاستسلام يوم 5 جويلية 1830.

ح- سقوط العاصمة وبداية الاحتلال:

في يوم 06 جويلية 1830 م دخل الجنود الفرنسيين مدينة الجزائر من الباب الجديد بأعلى المدينة وأنزلت أعلام دولة الداي من جميع القلاع والأبراج وارتفعت في مكانها رايات الاحتلال الفرنسي، وأقيمت صلاة للمسيحيين وخطب فيها كبير قساوسة الحملة، فقال مخاطبا قائد الحملة الفرنسية: " لقد فتحت بابا للمسيحية على شاطئ إفريقيا ." وفي يوم 10 جويلية رحل الداي عن مدينة الجزائر وتوجه إلى نابولي بإيطاليا، ثم التحق بفرنسا، وأخيرا توجه إلى الاسكندرية حيث أقام بها حتى وفاته ودفنه بها سنة 1834 .

وهكذا " تحولت الحملة في غضون أيام إلى احتلال، وتحول تأديب الداي حسين باشا إلى تأديب شعب وأرض، وتحول الانتقام من " الترك المستبدين الغرباء " إلى انتقام من صاحب الدار نفسه لأنه عربي ومسلم ولأنه رفع سلاح المقاومة في وجه الاحتلال، وأخيرا تحول المحررون إلى غزاة نقلوا حربهم من مدينة الجزائر إلى مختلف أنحاء القطر شرقا وغربا وجنوبا. "

خ- مرحلة توسع الاحتلال الفرنسي في مختلف المناطق الجزائرية:

بعد سقوط مدينة الجزائر خرج دي بورمون يوم 23 جويلية 1830 في حملة عسكرية لتوسيع رقعة الاحتلال بالداخل، فحاول احتلال مدينة عنابة في 2 أوت من نفس السنة، إلا أن مقاومة سكانها جعلته ينسحب منها، وفي 13 أوت 1830 حاولت فرنسا احتلال مدينة وهران والمرسى الكبير، غير أن المقاومة الشعبية اضطرت الحملة الفرنسية لعودة إلى العاصمة منهزمة والتي كانت من نتائجها قطع رأس ابن قائد الحملة على الجزائر العاصمة ووزير الحربية " دي بورمون " المسمى " أميدي ".

وفي نفس اليوم (أي 13 أوت 1830) تم تعيين "كلوزال "كأول جينيرال حاكما عاما للجزائر، وفي 20 أوت 1830 بعد الانقلاب الذي حدث ضد الملك شارل العاشر تم نفي دي بورمون إلى اسبانيا .

قام كلوزال بإعادة تنظيم الجيش الفرنسي بعد هزائمه في مختلف مناطق الجزائر، وأنشأ أول فرقة مشاة من بعض الجزائريين المرتزقة " الزواف " في أكتوبر 1830، وكان الهدف من إنشاء تلك الفرقة الاقتصاد في المال والدم الفرنسي وضرب الجزائريين بعضهم ببعض.

وفي 18 نوفمبر 1830 تمكنت الحملة العسكرية بقيادة " بوابيه " من دخول مدينة البليدة الذي حول مسجد البليدة إلى مستشفى عسكري، وفي 22 نوفمبر من نفس السنة تم احتلال المدية.

وفي 16 ديسمبر 1830 نجحت القوات الفرنسية في الاستيلاء على وهران، وفي عام 1833 استولت فرنسا على أرزيو ومستغانم وبعض المناطق المجاورة لهما.

استمرت المناوشات بين المجاهدين وقوات العدو في متيجة خلال 1833 - 1834، وظلت فرنسا خلال ذلك محاصرة في العاصمة، حيث لم يقم العدو بغزوات جديدة إلا على المدن البحرية.

يذكر أن اللجنة الافريقية التي ارسلت الى الجزائر عام 1833 للتحقيق في الأوضاع والأحوال في هذا البلد اقترحت أن تكتفي القوات الفرنسية باحتلال المناطق الساحلية فقط، وعدم التوغل إلى الداخل إلا لضرورة الدفاع عن المناطق الساحلية، لكن القوات الفرنسية توغلت نحو المناطق الداخلية، وقامت بالاستيلاء عليها حتى وصلت إلى جانت سنة 1911.

الجدير بالذكر أن المستعمر الفرنسي لم يتمكن من احتلال كامل التراب الوطني إلا بعد حوالي أربعين سنة (40 سنة) من الكفاح (1830-1870)، حيث بدأ أول الأمر باحتلال المدن الساحلية، مثل بجاية ووهران ومستغانم وعنابة، ومنها زحف على المدن الداخلية –كما أشرنا سابقا-

د- أسباب الهزيمة:

1- إعدام الداي حسين قائد جيشه "يحي آغا" في سنة 1827 واستبداله بصهره ابراهيم آغا الذي لا يفهم شيئا في فن الحرب أو قيادة الجيش. وابتداء من هذه السنة وإلى يوم 5 جويلية 1830 بقي الجيش بدون قائد حقيقي.

2- عدم وضع خطة أو استراتيجية مدروسة ودقيقة لمواجهة الجيش الفرنسي. حيث الخطة الدفاعية التي وضعها الأغا ابراهيم لإعاقة الانزال البحري للجيش الفرنسي كانت غير مجدية، بل جاءت متأخرة عن أوانها، لأن تحصين شاطئ سيدي فرج كان يحتاج إلى وقت طويل.

3- رفض الأغا ابراهيم اقتراح الحاج أحمد باي قسنطينة.

4- عدم إعداد الدفاعات الكافية عند ميناء سيدي فرج.

5- سوء تنظيم القوات الجزائرية التي كانت تهاجم العدو بطريقة فوضوية، فضلا عن افتقارهم للتدريب والانضباط.

6- اختلال ميزان القوة المادية والبشرية والتنظيمية لصالح الفرنسيين.

النتائج الأولية للاحتلال:

-1 نهاية الحكم العثماني في الجزائر

-2 قرار إلحاق الجزائر بفرنسا في 22 -07 -1834

-3 تحويل الكثير من المساجد إلى كنائس، مثل جامع كتشاوة.

-4 بداية المقاومة الشعبية للاحتلال.

-5 طرد العثمانيين من الجزائر.

-6 نهب خزينة الداي وخزينة الدولة.

-8 مصادرة الأوقاف الإسلامية.

المواقف الدولية من احتلال الجزائر:

تباينت المواقف الدولية من سقوط الدولة الجزائرية بأيدي القوات الفرنسية بين مؤيد ومعارض ومتحفظ، وفيما يلي سنذكر أهم هذه المواقف:

1- على المستوى الغربي:

كان موقف الدول الأوروبية في عمومه مؤيد للغزو والاحتلال، وفيما يلي سنستعرض أهم ردود فعل الدول الغربية:

- **روسيا:** أيدت روسيا الحملة بلا تحفظ ودعمته بمهندسين عسكريين، وصرحت بأنها تنظر يعين الرضا إلى احتفاظ فرنسا بمركز قوي في الجزائر لصيانة أمن الملاحة في البحر المتوسط، لأنها رأت في ذلك تقليلا للاهتمام فرنسا بالشرق والبلقان (محط أنظار روسيا)، كما أملت أن تحظى بدعم فرنسا لأطماعها في الدولة العثمانية، وتهديد المصالح البريطانية في البحر المتوسط.
- **ألمانيا:** أيدت الحملة.
- **اسبانيا:** تحفظت من العدوان الفرنسي على الجزائر لاعتقاد بعض أوساطها السياسية والعسكرية بأحقيتها في احتلال القطاع الوهراني من الجزائر، نظرا لوجودها السابق بوهران والمرسى الكبير لما يقرب من ثلاثة قرون، ولارتباطها باتفاقية تجارية مفيدة مع الجزائر، وحرصها على الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع بريطانيا، لكن هذا لم يمنعها في سياق مناصرة الرأي العام الأوروبي لعملية الغزو من السماح للحملة الفرنسية بالتوقف بجزر الباليار للتمون وإقامة مستشفيات بميناء ماهون (Mahon) كما سبقت الاشارة إليه، واستئجار عدد من سفن الشحن الاسبانية .
- **النمسا:** اضطرت إلى التأييد بعدما كانت في الصف البريطاني المعارض الوحيد، حيث كان مستشارها مترنيخ يميل إلى موقف بريطانيا، وفي ذات الوقت كان يميل وحكومته إلى تحويل اهتمام فرنسا إلى التوسع خارج أوروبا، كما عليها مجاراة حليفتها روسيا وبروسيا في تأييد الخطوة الفرنسية، فقبلت النمسا بالأمر الواقع .
- **بروسيا:** أيدت الغزو وعرضت خدمات ضباطها على فرنسا لتضعف اهتمامها بالمسائل الأوروبية خاصة منطقة الراين، ولعدم اهتمامها هي بالبحر المتوسط، فضلا عن وقوعها تحت ضغط حليفتها روسيا.
- **بريطانيا:** عارضت الغزو واحتجت عليه، لأنها رأت في ذلك تهديدا لتفوقها ومصالحها في البحر الأبيض المتوسط، وأعلنت أنها لن تسمح بأكثر من عملية قصف لتأديب مدينة الجزائر، ولكن بريطانيا لم تستطع ترجمة هذا الموقف عمليا. حيث امتنعت عن القيام بأي عمل لإعاقة الغزو أو إجبار فرنسا على الانسحاب لتوقعها انهزام الفرنسيين في الجزائر، ورهان بعض ساستها على أن فرنسا متى تورطت وغدت مهددة بالهزيمة، ستلتمس من بريطانيا التدخل لمساعدتها، وعندها تصبح بريطانيا سيدة الموقف، وكذا لعدم وجود نية لدى حكومتها بخوض حرب ضد فرنسا بسبب الجزائر.
- **الدول الإسكندنافية ودول الضفة الشمالية للبحر المتوسط:** أيدت الحملة بعد المساعي الدبلوماسية المبذولة في هذا الإطار.

- **الولايات المتحدة الأمريكية:** روى جول كامبون الذي حكم الجزائر بين (1891-1897) أن الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت قد عبر له عن امتنان أمريكا لقضاء فرنسا على القرصنة في الجزائر سنة 1830، لأن الفرنسيين هم الذين خلصوا أمريكا مما لا يليق بها وهو دفع اتاوات إلى قراصنة الجزائر لحماية تجارتها. ونسب كامبون إلى روزفلت أنه قال له " إنكم بالقضاء على هؤلاء القراصنة قد خدمتم كل الأمم المتحضرة."

2- على المستوى العربي:

- **تونس:** كان باي تونس من المؤيدين للاحتلال انتقاما من دايات الجزائر الذين كانوا يعتبرون تونس تابعة لهم .
- **المغرب:** التزم التحفظ والصمت .
- **طرابلس:** فقد عارضت الحملة سياسيا ولم تجسد ذلك عمليا .

3- على مستوى الدولة العثمانية: أما بالنسبة إلى الحليف الإسلامي الأكبر والدولة الأم فلم يكن موقفها في مستوى الحدث نظرا لحالة الضعف التي كانت تعيشها بتفشي الفوضى في قواتها العسكرية وعدم مواكبتها للتطورات الحضارية الحاصلة في أوروبا، وبالتالي اقتصر موقفها في إرسال مبعوث خاص هو الطاهر باشا لتبديد الخلاف بين الجزائر وفرنسا، ولكن هاته الوساطة جاءت متأخرة، ثم إن فرنسا لم تعرض اهتماما، وقد كانت قواتها قد حققت انتصارا على الأرض والميدان.

المراجع المعتمدة في المحاضرة الرابعة:

1- عمار بوحوش، **التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962**، ط 1، بيروت، دار العرب الاسلامي، 1997

2- عمار عمورة، **موجز في تاريخ الجزائر**، ط 1، الجزائر، دار ريحانة، 2002

3- صالح فركوس، **المختصر في تاريخ الجزائر (من عهد الفينقيين إلى خروج الفرنسيين 814 ق.م – 1962 م)**، (ب.ط)، دار العلوم للنشر والتوزيع، (ب.س.ط).

5- مولود قاسم نايت بلقاسم، **شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830**، ط 2، الجزء الثاني، الجزائر، شركة دار الأمة، 2007.

6- أبو القاسم سعد الله، **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)**، ط 3، الجزائر، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، 1982

7- بشير بلاح، **تاريخ الجزائر المعاصر (1830–1989)**، ج 1، الجزائر، دار المعرفة، (ب.س .ط)

8- صالح فركوس، **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر (1830–1925)**، (ب . ط)، الجزائر، مديرية النشر لجامعة 08 ماي 1945 قالمة، 2010

9- صالح عباد، **الجزائر خلال الحكم التركي (1514–1830)**، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر ة التوزيع، (ب .س .ط)